

الثورة في القصة القصيرة الجزائرية

د/ عبد الحميد قاوي
جامعة عمار ثليجي الأغواط

تقديم

إنّ الدارس لتاريخ الجزائر المجيد، خاصة إبان الحقبة الاستعمارية الفرنسية لا يسعه إلا أن ينحني خاشعا أمام ثورة نوفمبر الخالدة، لأنها ثورة دخلت التاريخ من أبوابه الواسعة وضربت أحسن مثال إنساني في الإرادة والإصلاح والتغيير ومقاومة الظلم والشر.

ولقد كان نداء جبهة التحرير الوطني الجزائرية غرة شهر نوفمبر 1954م شهادة ميلاد حقيقية لصوت الشعب الجزائري برمته . نداء نابع من أعماق قلوب صادقة طاهرة، وعقول ناضجة راقية، وهمم عالية آمنت بالكفاح المسلح مخرجا من ويلات الاستعمار والعبودية والظلم، وقد تميزت ليلة نوفمبر بتنظيم محكم يدل دلالة واضحة على وجود مخطط مدروس يتسم بالجدية والعزم، فعند منتصف الليل بالضبط، وفي مناطق مختلفة من أنحاء الوطن نفذ المجاهدون الأبطال عمليات عسكرية، ووزعوا المنشورات باللغتين العربية والفرنسية إيذانا ببدء الكفاح المسلح الذي طالما حلم به الشعب الجزائري من أقبح وأبشع استعمار عرفه التاريخ الحديث .

ولقد استعمل المجاهدون والثوار- في كافة العمليات - أسلحة تكاد تكون موحدة، فالتقابل التي تم تفجيرها مصنوعة محليا، والأسلحة أغلبها أسلحة صيد أو من غنائم أخذوها في معاركهم السابقة وعملياتهم الحربية ... دون أن ننسى أن عدد المجاهدين ليلة الفاتح من نوفمبر كان عددهم لا يتجاوز الأربعمئة مجاهد معظمهم نال الشهادة العليا عند ربه . ولقد لمع في سماء الجزائر المجاهدة كل من : مصطفى بن بولعيد - العربي بن مهيدي - ديدوش مراد - زيغود يوسف - أحمد زبانا - يوسف بن خدة - عبان رمضان - رابح بيطاط - باجي مختار - محمد بوضياف - جميلة بوحيرد - حسينة بن بوعلي - العقيد لطفي - عميروش - علي لابوانت - طالب عبد الرحمن - عمار ثليجي

إن الثورة الجزائرية هزّت وجدان الشاعر العربي منذ تفجيرها غرة شهر نوفمبر من عام 1954م، واستمر ذلك إلى زمن ما بعد الاستقلال، ولا نبالغ إذا قلنا : إن الأدب بفضله (الشعر والنثر) في كل قطر عربي حفل بتناول الثورة الجزائرية وكفاح هذا الشعب العريق . ويجدر بنا هنا أن نتناول أولا مفهوم الثورة ثم بعد ذلك نتكلم عن الأدباء العرب الذين تناولوا قضية الثورة الجزائرية في أدبهم .

مفهوم الثورة :

لغة : جاء في لسان العرب لابن منظور الإفريقي في مادة (الثاء والألف والراء) ما يلي : « ثار الشيء : ثورا وثوروا، وثوراناً : هاج . والثائر : الغضبان، ويقال للغضبان أهيج ما يكون : قد ثار ثائرته ، وفار فائرته ، إذا غضب وهاج غضبه ... ويقال : انتظر حتى تسكن هذه الثورة، وهي الهيج »⁽¹⁾.

وفي الاصطلاح الثورة تعني " الفعل الذي يسعى لإحداث التغيير الشامل لكل ما هو ليس إيجابياً " أو هي " الفعل الذي يهدف للتطهير الكلي، وقلب ملامح البؤس والسوء والسلبيات، ويغير المجتمعات والأفكار " ⁽²⁾.

يقول عبد المعطي حجازي (شاعر وناقد مصري ولد عام 1935م في قصيدته أوراس)⁽³⁾.

ثورة... ثورة

ما أعظمه يوم الثورة

تهتز الأعماق الحرة

تهوى مدن ... يهمني مطر تنمو زهرة

تتعارك مخلوقات النور، ومخلوقات الحفرة

إنّ الأدب أحد وسائل الثورة وأكثرها فاعلية، فما ثورة السياسة إلا في الحقيقة استجابة لثورة العقول والقلوب، والنفوس والقرائح التواق للحرية والاعتداد بالذات .

وعلاقة الأدب بالثورة علاقة قديمة قدم الإنسان ، فقد ترافقا - منذ القدم - لتحقيق التغيير وإرساء قواعد الحرية، فالثورة المسلحة والكلمة الإبداعية وجهان عملة واحدة بوجهين متباينين، إذ الكلمة سلاح فعال تحدث في الإنسان ما تحدثه الرصاصة والقنبلة . وقد توسل بها الأديب للتعبير عن أفكاره ورغباته وآماله وأحلامه، وبها لمعت أسماء وثورات خلدها التاريخ، وبها ظهرت للعيان أمم وشعوب، فلم نكن نسمع عن ملاحم اليونان وما بيلهم لولا " هوميروس " ، وما كنا نعرف " عمورية " وفتح الفتوح لولا أبو تمام

إنّ الثورات سجلها التاريخ في ديوانه كتواريخ تصف الأحداث والمجريات وجعل اسمها مخلدا بفضل الأدب الذي مجد هذه الثورات كقيم ومواقف ومبادئ إنسانية عليا .

لقد سجل الأدب الأصيل طوال رحلته أحداث الثورات ومجدها، بل وكان الشعر كثيرا مفجر هذه الثورات ومشعل فتيلها ولعل قصيدة الشاعر الزاهد أبي إسحاق الإلبيري الأندلسي " ألا قل لصنهاجة أجمعين " أصدق مثال على حقيقة قيمة الأدب في إذكاء الثورات العظيمة يقول ⁽⁴⁾:

ألا قل لصنهاجة أجمعين

بدور الندي وأسد العرين

لقد زل سيدكم زلة

تقر بها أعين الشامتين

تخير كاتبه كافرا

ولو شاء كان من المسلمين

فعز اليهود به وانتخوا

وتاهوا وكانوا من الأرذلين

فكم مسلم فاضل قانت

لأرذل قرد من المشركين

وما كان ذلك من سعيهم

ولكن منا يقوم المعين

وإذا كان الأدب يصنع الثورة - كما قلنا - فإن الثورة هي كذلك بدورها تصنع للأديب أفكاره وتخلق له رؤى، بل تغيّر مجرى حياته، فهذا هو نزار قباني - مثلا - بسبب نكسة العرب سنة 1967 يقول بلا تكلف⁽⁵⁾ :

يا وطني الحزين

حولتني بلحظة

من شاعر يكتب شعر الحب والحنين

لشاعر يكتب بالسكين

يصطلح النقاد والدارسون على أن الإنتاج الإبداعي الذي واكب الثورة، وعاش لظاها، أو بمعنى آخر الأدب الذي قيل أثناء الحوادث والثورات يسمى بأدب الثورة . وهو أدب يغلب عليه العاطفة المفعمة بالحماس ويغلب عليه الصور التي كثيرا ما تكون مشاهد مملوءة بالحركة والألوان

حظيت الثورة الجزائرية بإجماع الوجدان العربي، ووقف منها المواطن العربي موقف المتحمس لأحداثها أيا كان اتجاهه السياسي أو القومي أو العقدي، وهذا سرّ غنى الأدب الذي قيل في الثورة الجزائرية، لان أدباء الثورة ينتمون إلى جميع التيارات والأحزاب السياسية والفئات، والكل وجد فيه ضالته، فراح يعزز بأحداثها ما يؤمن به،

وكل هؤلاء تغنوا بأحداث ثورة نوفمبر من زاوية انتمائهم يقول أديب الثورة الجزائرية وشاعرها الأكبر مفدي زكريا⁽⁶⁾:

نوفمبر جل جلالك فينا
ألست الذي بث فينا اليقين
سبحنا على لُجَجٍ من دمانا
وللنصر رحنا نسوق السفينا
وثرنا نفجر نارا ونورا
ونصنع من صلبنا الثائرينا
ونلهم ثورتنا مبتغانا
فتلهم ثورُتنا العالمين
جمعنا لحرب الخلاص شتاتا
سلكنا به المنهج المستبين
فليت فلسطينا تقفو خطانا
وتطوي كما قد طوينا السنين

ويقول المؤرخ والأديب أبو القاسم سعد الله متغنيا بليلة الفاتح من نوفمبر في قصيدة بعنوان : (الليلة الغراء)⁽⁷⁾ :

كان حلمًا واختمارًا
كان لحنًا في السنين
كان شوقًا في الصدور
(أن نرى الأرض تثور)
أرضنا بالذات، أرض الوادعين

أرضنا السَّكرى بأفيونِ الولاءِ
أرضنا المغلولة الأعناق من قرنٍ مضى...
كان حلما، كان شوقا، كان لحنًا ،
غير أن الأرض ثارتْ
والهتافات تعالتْ
من رصاص الثائرينْ
مثلما تمّوي الظنونْ
وبراكين بلادي هزّت الدنيا ومارتْ
كقلوب الكرماء الواعدينْ

الثورة في القصة الجزائرية الحديثة والمعاصرة

يقول المولى تعالى في الذكر الحكيم : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ سورة [الأحزاب (23)] .

لقد أثنى الله تعالى على عباده المؤمنين الصادقين الموفين بعهدهم في الدفاع عن العقيدة الإسلامية، وعن الأوطان، وعن المظلومين والمستعبدين، وبشّر الشهداء والمجاهدين بجنت النعيم، والمأوى الكريم، وجعلهم في زمرة الأنبياء والصالحين، وقد عمّق الإسلام في مواطن كثيرة من الكتاب والسنة النبوية الشريفة الإحساس التاريخي ، إذ قصّ علينا أخبار الأمم الغابرة ، وغدت القصة في القرآن الكريم والسنة النبوية علما من علوم القرآن، ومحورا كبيرا من محاوره ومعلما بارزا من معالم استنباط الأحكام الشرعية، ومنهجها قوبما في السلوك والأخلاقيات، والعادات والعبادات، وسبيلا في الفهوم والإدراكات . لأنّ القصة كالسيرة تكتفي باستيحاء التاريخ دون تشويه للحقائق والأحداث .

ونحن نتكلم عن القصة القصيرة كفن أبداعى وتناولها الثورة الجزائرية كموضوعة وغرض في هذا المقال، فإننا - لا محال - نقف عند جنس أدبي له بناؤه الخاص، ونسجه المتميز عن بقية الأجناس الأدبية الأخرى، وله جمالياته الأسلوبية والتعبيرية الخاصة، وأثره في جمهور المتلقين والسامعين، فالقصة غير الشعر، والقصة غير الرواية، والقصة غير النص المسرحي، وإن كانت هاته الأجناس الأدبية - كلها - تشترك في أنها أداة من أدوات التعبير، ووسيلة من وسائل التصوير والتأثير، والكلمة بدلايتها وشاعريتها وجمالها وإيقاعها، وحسن نظمها الصوتي هي اللبنة التي تبنى بها جميع هذه الفنون القولية من شعر ونثر فني وقصة ورواية ومسرحية .

القصة : لغة : القصة مأخوذة من الفعل الثلاثي قصص بمعنى تتبع الأثر ، قال تعالى ﴿ فارتدّ على آثارهما قصصا ﴾، والقصة تعني كذلك الأمر والحديث، يقال اقتص الحديث بمعنى رواه على وجهه ..

واصطلاحا : يعرفها رشاد رشدي : « القصة ليست مجرد خبر تقع في صفحات قلائل، بل هي لون من ألوان الأدب الحديث ظهر في أواخر القرن التاسع عشر، له خصائص ومميزات شكلية معينة »⁽⁸⁾، أما عبد الله الركيبي فيرى أن القصة هي : « التي تعبر عن موقف، أو لحظة معينة من الزمن في حياة الإنسان ويكون الهدف التعبير عن تجربة إنسانية تقنعها بإمكان وقوعها فهي تصوير حي لجانب من الحياة في إيجاز وتركيز »⁽⁹⁾ . أما محمد يوسف نجم فيعرفها أنها : « مجموعة الأحداث التي يرويها الكاتب، وهي تتناول حادثة واحدة أو حوادث عدة تتعلق بشخصيات إنسانية مختلفة، تتباين أساليب عيشها وتصرفها في الحياة على غرار ما تتباين حياة الناس على وجه الأرض، يتضمن شخصيات معينة، تلامس الحياة الواقعية، يصوغها الكاتب بطريقته الخاصة »⁽¹⁰⁾ .

أما إبراهيم بن صالح فيعرفها بأنها: « " كل فن قولي يقوم على أساس أحداث تكشف عن صراع يجري في الواقع أو يحتمل أن يقع بحيث يهب القارئ متعة جمالية بقطع النظر عن وجود منفعة مباشرة من هذا الفن أو عدم وجودها »⁽¹¹⁾ .

وبناء على هذه التعريفات فإننا نستنتج أن القصة القصيرة فن نشري ظهر في العصر الحديث وفق خصائص شكلية ، وهي عبارة عن حدث أو موقف من الحياة يتضمن شخصيات تلامس الحياة الواقعية، يصوغها الكاتب بطريقته الخاصة .

و بحسب بعض النقاد والأدباء العرب من أمثال محمود تيمور ومحمد حسين هيكل وطه حسين ومحمد زغلول سلام تعود نشأة القصة القصيرة إلى تأثر العرب بالأدب الغربي وأعلام الفن القصصي " كادجار آلان بو" في أمريكا، و"جي دي موبوسان" في فرنسا، و" أنطوان تشيخوف " في روسيا ... بينما هناك من النقاد والدارسين من يرون أنّ فنّ القصة في العصر الحديث له جذور موعلة في تراثنا، فالعرب قديما اشتهروا بسرد الحكايات والبطولات والوقائع، ولهم جنس أدبي أصيل هو فن المقامات فضلا عن القصص الديني الذي كان مصدره القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة .

وبناء على هذا القول فإن نشأة القصة القصيرة في الأدب العربي ماهي في حقيقتها إلا نتيجة استعداد قبلي لتقبل هذا الفن الأدبي ونتيجة تأثر بالآداب الغربية عن طريق الترجمات وغيرها ..

تعد قصة محمود تيمور " في القطار " التي نشرت عام 1917م وقصتي مخائيل نعيمة " سنتها الجديدة " التي نشرت عام 1914م وقصة " العاقر " التي نشرها سنة 1915م من بواكير القصص في الأدب العربي الحديث .

أما القصة القصيرة في الجزائر فقد ظهرت متأخرة نوعا ما مقارنة مع ظهورها في المشرق العربي - مصر - وذلك بسبب الظروف التي شهدتها الجزائر في فترة الاستعمار الفرنسي الذي حاول - كما سبق وأن ذكرنا - القضاء

على الشخصية الوطنية وطمس الهوية الثقافية والأدبية العربية . فعبد المالك مرتاض يرجعها إلى سنة 1925 م ويرى أن قصة " فرانسوا والرشيد " لـ محمد السعيد الزاهري، هي أول محاولة قصصية عرفها النشر الجزائري الحديث، ولموضوعها الجريء نالت إعجابا وضجة كبيرة لمعالجتها قضية المساواة السياسية بين الجزائريين والفرنسيين⁽¹²⁾... أما عبد الله الركيبي فيرى أن بداية القصة القصيرة الجزائرية ترجع إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية، في أواخر العقد الثالث حيث ظهرت على شكل المقال القصصي الذي هو مزيج من المقامة والرواية والمقالة الأدبية . وهو بهذا تحفظ على تحديد تاريخ معين لنشأة القصة القصيرة في الجزائر⁽¹³⁾. أما الدكتور " عمر بن قينة " فيعدّ سنة 1908 م المعلم البارز لظهور هذا الفنّ (قصة " المناظرة بين العلم والجهل المكتوبة سنة 1908م بقلم محمد بن عبد الرحمن الديسي)⁽¹⁴⁾ . أما الدكتورة "عايدة أديب بامية" فتؤثر سنة 1926م كإيدان لميلاد هذا الفن في الجزائر . مع قصص علي بكر السلامي في قصته التي كتبها سنة 1926 " دمعة على البؤساء " ⁽¹⁵⁾

وقد بلغت القصة القصيرة الجزائرية نضجها الفني مع محمد بن عابد الجلاّلي، وابن عيسى عبد القادر (قاص مغمور للأسف قصته " بين مؤودين ") وأحمد بن عاشور (عانس تشكو - زواج عصري - تضحية - حجاج في مقهى ..)، وزهور ونيسي (قصتها الأمنية) و محمد سعيد الزاهري وغيرهم .. وكانت الثورة الجزائرية سنة 1954 م والحماس لتسجيل أحداثها وتصوير أبطالها من أكبر الدوافع لكتابة القصة القصيرة في شكلها الفني .

لمع في الساحة الأدبية أسماء كثيرة كان لها الفضل في ظهور القصة القصيرة في الجزائر من أمثال :

- أحمد رضا حوحو : الذي يعد الرائد الذي وضع اللبنة الأولى للقصة العربية في الجزائر (اشتهر بقصته " عادة أم القرى ") .
- محمد بن عابد الجلاّلي : من قصصه (في القطار - السعادة البتراء - الصائد في الفخ بعد الملاقاة ...) .
- محمد السعيد الزاهري (ولد سنة 1899م) له قصة " فرانسوا والرشيد "
- عبد الحميد بن هدوقة (ولد سنة 1925م) احد رواد الأدب الجزائري المكتوب باللغة العربية ، ومن أوائل الكتاب الذي وظفوا أدبهم للتعبير عن ثورة التحرير، وعن الريف الجزائري ومشكلات المغتربين الجزائريين .
- عبد الله الركيبي (ولد سنة 1928م) أحد الكتاب البارزين منذ أيام الثورة، قصر إبداعه في القصة القصيرة ومعالجة موضوعات الثورة التحريرية ، وتصوير حياة المجاهدين في الجبال، وحروبهم الكثيرة مع الجيش الفرنسي، ومجموعته القصصية الموسومة بـ " نفوس ثائرة " تدل على وعيه الفني العميق والكبير فقد صورت ببراعة وصدق الواقع الجزائري المعيش بكل تفاصيله .
- عثمان سعدي (ولد سنة 1930م) : ركز عثمان سعدي في مجموعته القصصية الوحيدة الموسومة بـ " تحت الجسر المعلق " على موضوعات الثورة، واتسمت بطول الزمن، وتعدد الشخصيات، وكثرة الأحداث .
- زهور ونيسي (ولدت سنة 1936م) : من أبرز الأدبيات الجزائريات، تتميز مواضيعها بغناها السياسي والاجتماعي والفكري والنضالي، وتركيزها الشديد على عنصر المرأة الجزائرية أمّا أو زوجة مثقفة أو أمية ريفية أو حضرية، جنديّة في جيش التحرير أو مسؤولة عنها .

- أبو العيد دودو : له مجموعة " بحيرة الزيتون " وقصة " الفجر الجديد " وهي محاولة يدور موضوعها حول الثورة الجزائرية وقرار الالتحاق بها الذي أنجزه الزوجان عباس وخضراء .
- الطاهر وطار (ولد سنة 1936م) : رائدا من رواد القصة القصيرة في الجزائر له مجموعات قصصية كثيرة منها : " دخان من قلبي " 1962 م، و " الطعنات " 1971، و " الشهداء يعودون هذا الأسبوع " 1980، ومن أهم القصص التي جسدت معاني الثورة وعبرت عن معاني شجاعة المجاهدين وصمودهم قصة " محو العار " و " نوة " و " الدروب " ..
- أبو القاسم سعد الله له مجموعة من القصص الفنية منها " سعة خضراء " .

إن معظم موضوعات القصة القصيرة الجزائرية كان يدور حول الثورة وما يتصل بها من حديث عن الهجرة خارج الوطن أو آثار الاستعمار ، ثم التقاليد والعادات والعادات، وما يتصل بهما من تصوير لعلاقة الرجل بالمرأة ..

من أهم المراجع :

- 1- أحمد طالب، الالتزام في القصة القصيرة الجزائرية المعاصرة في فترة 1931-1976، ديوان المطبوعات الجامعية .
- 2- شريط أحمد شريط، تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية المعاصرة الجزائر، دار القصة .
- 3- عبد القادر بن سالم، مكونات السرد في النص القصصي الجزائري الجديد، دار القصة . الجزائر.
- 4- مخلوف عامر، مظاهر التجديد في القصة القصيرة في الجزائر، دار الأمل للطباعة
- 5- عبد الله الركبي، القصة الجزائرية القصيرة، دار الكتاب العربي للنشر .
- 6- تطور النشر الجزائري الحديث، الدار العربية للكتاب - ليبيا
- 7- عايدة أديب بامية، تطور الأدب القصصي الجزائري 1925-1967، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر
- 8- عبد الملك مرتاض، فنون النشر الجزائري (1931-1945)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر
- 9- عبد الله خليفة الركبي، القصة الجزائرية القصيرة ، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس .
- 10- عمر بن قينة، دراسات في القصة القصيرة الجزائرية (القصيرة والطويلة)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.

الهوامش:

- ¹ - ابن منظور (جلال الدين محمد بن مكرم)، لسان العرب ، مادة (ثور)، طبعة دار الجليل، بيروت_لبنان
- ² - جميلة بوقاسة، جميلة بوحيرد الرمز الثوري في الشعر العربي المعاصر، رسالة ماجستير، اشراف الدكتور يوسف وغيلسي، جامعة منتوري قسنطينة ، 2006/2007، ص 18 وما بعدها
- ³ - أحمد معطي حجازي، ديوان أحمد معطي حجازي، ط 3، العودة، بيروت، 1982، ص 401 .
- ⁴ - أبو إسحاق الإلبيري، ديوان أبي إسحاق الإلبيري، دار صادر، لبنان، ص: 121
- ⁵ - نزار قباني، هوامش على دفتر النكسة، منشورات نزار قباني، بيروت، لبنان، ط 6، 1971، ص: 09
- ⁶ - مفدي زكريا، اللهب المقدس، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983، ص 85
- ⁷ - أبو القاسم سعد الله ، الزمن الأخضر ، المؤسسة الوطنية للكتاب، (د.ط)، الجزائر ، 1985 ، ص : 179
- ⁸ - رشاد رشدي، فن القصة القصيرة، مكتبة الأنجلو المصرية ،القاهرة، مصر، ط 1، ص 27.
- ⁹ - عبد الله خليفة الركبي، القصة الجزائرية القصيرة ، الدار العربية للكتاب، ليبيا، 1977 ، ص 09
- ¹⁰ - محمد يوسف نجم، فن القصة، دار بيروت للطباعة والنشر، 1955، ط 1، ص 07
- ¹¹ - إبراهيم بن صالح، القصة القصيرة عند تيمور، محمد علي للنشر، صفاقص، تونس، 2005، ط 3، ص : 14
- ¹² - عبد الملك مرتاض، فنون النثر الجزائري (1931-1945)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر . ص 38
- ¹³ - عبد الله خليفة الركبي، القصة الجزائرية القصيرة ، الدار العربية للكتاب، ليبيا، 1977 . ص 19
- ¹⁴ - عمر بن قينة، دراسات في القصة القصيرة الجزائرية (القصيرة والطويلة)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر . ص 26
- ¹⁵ - عايدة أديب بامية، تطور الأدب القصصي الجزائري 1925-1967، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر . ص 36